الشام وَحْدة إدارية وسياسيّة وجغرافية في جزيرة العرب

أما أنها وحدة جغرافية: فلأن الجزيرة العربية تمتد في رقعة من الأرض واسعة ذات بقاع متباينة تختلف بيئاتها الطبيعية اختلافاً يكاد يجعل منها مواطن متعددة، وإن كانت ـ مع ذلك ـ وطناً واحداً متماسكاً. فما بين البحر الهندي في أقصى الجنوب، إلى ما بَعْد دمشق في أقصى الشمال، وما بين الخليج العربي، ونهري دجلة والفرات في الشرق، إلى نهر النيل في الغرب، كانت تسبح هذه الأمة العربية العريقة في الأغوار والأنجاد وفي السهول وفوق قنن الجبال، وفي أجواف الصحارى، وعلى سواحل البحار، وكان لابُدّ لهذه الرقعة المترامية الأطراف المتباعدة الأقطار من أن يختلف مناخها، كما اختلفت طبيعة أرضها.. ولذلك كان لكل إقليم من أقاليم الجزيرة العربية الخاصية المناخية المتميزة بسبب الموقع الجغرافي، والشام أحد هذه الأقاليم، ولسنا بسبيل بحث جغرافية الشام المتميزة، ولكنني أذكر أن بلاد الشام كانت الرصيد الاحتياطي للعرب، يلجؤون إليها كلما ضاق بهم العيش عبر العصور.

وأما كون الشام وحدة إداريّة وسياسيّة في جزيرة العرب، فهذا ظاهر في شكل الإدارة التي تميزت بها عَبْر العصور.

لقد احتل الرومان إقليم الشام عام (63 ق.م) على يد القائد بومبي، واعتبرت (الشام) الجغرافية ولاية رومانية عاصمتها أنطاكية مركز حاكم عام الولاية. وكان الحاكم العام مطلق الصلاحية لمدة سنة واحدة، يُدعى: بروقنصل، ثم ألغي هذا النظام، وأضحى الحاكم العام يرجع في الأمور الهامة إلى روما، ويبقى في ولايته ما دام قادراً على القيام بمهام منصبه على أكمل وجه. وترك الرومان حكام البلاد الوطنيين يدبرون شؤون مقاطعاتهم، وكان فيهم زعماءُ من العرب يحكمون بعض المدن في شمال سورية، وكان على جميع المسؤولين في المدن والمقاطعات أن يرجعوا إلى الحاكم العام في أمورهم السياسية والقضائية، وأن يدفعوا الضرائب المطلوبة، وأن يقدموا الجند حين الحاجة.

• **وعُقْر دار المؤمنين الشام، ودار الهجرة الدائمة.**

العنوان مأخوذ من حديثين:

الأول: «عقر دار المؤمنين الشامُ»، وعُقرُ كل شيء: أصله، وعُقر الدار: أصلها، أو وسطها، وهو محلة القوم، ومنه قول عليّ بن أبي طالب: «ما غُزي قوم في عُقْر دارهم إلا ذلُّوا».

ونصّ الحديث الأول صحيح، أخرجه الإمام أحمد (4/ 104)، وفي رواية: «عُقْر دار الإسلام الشام»؛ أي: أصله وموضعه، فجمعت الروايتان بين «الإسلام والإيمان».

قال ابن منظور في «لسان العرب»: كأنه أشار به إلى وقت الفتن؛ أي: يكون الشأم يومئذ.

وأرى أن المفهوم أوسع من ذلك، وأظنُّه يخبر عن الماضي، وعن الزمن المستمر. فإذا كان النصّ «عقر دار المؤمنين»، فهو يخبر عما كان قبل الإسلام، ويخبر عما سيكون؛ ففي بلاد الشام عاش أبو الأنبياء إبراهيم، وقد نجاه الله من أهل الشرك في بابل، إلى الشام، فوضع الأساس لعقيدة التوحيد، فجاء إسحاق، ويعقوب، وزكريا، ويحيى، وعيسى بن مريم، وانضم إليهم محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليلة الإسراء، ولحق به أصحابه من بعده.

وإذا كانت الرواية: «عقر دار الإسلام»، فهو الإسلام بمعناه الأشمل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، وسوف يبقى الشام ـ إن شاء الله ـ عُقر دار المؤمنين، وعقر دار الإسلام؛ حيث «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم مَنْ خالفهم، ولا مَنْ خذلهم، حتى تقوم الساعة».. وهم بالشام.

أما الجزء الثاني من العنوان «دار الهجرة الدائمة»، فهو من الحديث الصحيح: «ستكون هجرةٌ بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمُهم مهاجر إبراهيم».. ومكان هجرة إبراهيم عليه السلام هو الشام. وقد جعل مهاجر إبراهيم يعدل مهاجر محمد ﷺ، فإن الهجرة إلى المدينة النبوية انقطعت بفتح مكة «لا هجرة بعد الفتح»، أما الهجرة إلى

ديار الشام، فهي دائمة لا تنقطع؛ لأن الشام ثغر من ثغور المسلمين، ولا ينقطع غزو الأعداء له، فهو في حاجة إلى المرابطين المجاهدين الذين يدفعون عنه، والدفع عنه دفع عن دار الهجرة الأولى. والله أعلم.

. . ويلاحظ من مجموع ما كُتب عن بلاد الشام في أثناء الاحتلال الروماني: أنهم كانوا يديرونها بوصفها إقليماً متميزاً مختلفاً عن بلاد الروم في جغرافيته، وتكوينه السكاني، بل كانوا يديرونه بوصفه بلداً غريباً عن جسم الدولة الرومانية، ذلك أن سكانه يختلفون عن سكان بلاد الروم في الأصل والعرق والتاريخ والثقافة واللغة. . وبعد حوالي سبعة قرون من الحكم الروماني، لم يستطيعوا نشر اللغة الرومانية في بلاد الشام، فبقيت العربية الآرامية[1] هي السائدة. .

وعندما أرسل الله محمداً ﷺ بالرسالة الخاتمة، وأسرى به إلى بيت المقدس، توجهت أنظار المسلمين إلى الشام بعامّة، بوصفه إقليماً من أقاليم جزيرة العرب. . وكان الإسراء إلى القدس، رمزاً للشام كلّه. وجاءَت أحاديث النبيّ تخبر بفتح الشام، وتدعو المسلمين إلى المرابطة فيه، وشدِّ الرحال إلى مسجده الأقصى. . ولم تخص مدينة من مُدنه، أو بقعة من بقاعه. .

ثم توجّه إليه العرب الفاتحون بوصفه ـ أي: الشام ـ إقليماً متفرداً؛ فهناك جيوش لفتح الشام، وجيوش لفتح العراق، وجيش لفتح مصر. .

وتمَّ الفتح، فكانت الشام وحدة إدارية لها أميرها المتصل بالعاصمة: المدينة النبويّة.

---

(1) حكم الفرس بلاد الشام من سنة (538 ـ 332ق. م)، فلم يستطيعوا نشر لغتهم وثقافتهم، وبقيت العربية الآرامية هي السائدة. وحكم اليونان بلاد الشام من سنة (332 ـ 63 ق. م)، فلم تغلب ثقافتهم ثقافة أهل الشام ولغتهم. وحكم الرومان بلاد الشام من (63 ـ 395 م)، ثم حكم البيزنطيون الشام من (395 ـ 636م). وما بين بداية الحكم الفارسي، ونهاية الحكم البيزنطي، وبداية الفتح العربي أكثر من ألف سنة، وهذه الأمم التي احتلت بلاد الشام، كانت ذات حضارة وثقافة، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يُبعدوا سكان الشام عن عروبتهم ولغتهم. ولم تمض إلا سنوات قليلة بعد الفتح العربي الإسلامي حتى سادت الثقافة العربية، واللغة العربية الجديدة. . وذلك أن اللغة العربية العتيقة، واللغة العربية الجديدة من جذر واحد.

وقسموا الشام إلى «أجناد» إداريّة، تحت إمارة واحدة؛ حيث ترجم ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: «أجناد الشام»، قال: وهي جمع جُنْد، وهي خمسة: جند فلسطين، وجُند الأردن، وجُنْد دمشق، وجند حمص، وجند قنسرين. وقيل: سمّى المسلمون «فلسطين» جنداً؛ لأنه جَمَع كوراً (جمع كورة، وهي المدينة)، والتجنُّد: التجمع، وجندتُ جنداً أي: جمعتُ جمعاً، وكذلك بقية الأجناد. وقيل: سميت كل ناحية بجُنْد كانوا يقبضون أعطياتهم فيه.

وبَعْدَ الفتح بقليل، أخذت تتكون شخصية جديدة للشام وأهله ضمن الدولة العربية، وكانت شخصية متميزة مقيسة بأقاليم الجزيرة العربية، أو أقاليم بلاد العرب[1].

وقد بدأت تتكون الشخصية الشامية الجديدة المتأثرة بالعرب المسلمين الفاتحين، بَعْدَ تولي معاوية إمارة الشام، ووضع الأساس لإمارة دائمة، وخصوصاً بعد تولي عثمان الخلافة، حيث شعر الأمويون بالأمان في الإمارات التي تولوها ـ ما لم تكن شكوى عامة من أحدهم ـ، وبعد مقتل عثمان، وحدوث الفتنة، بدأ يظهر مصطلح «أهل الشام» السياسي، في مقابل «أهل العراق». وتميز سلوك أهل الشام السياسي بالطاعة للأمير، وبالغوا في وصف طاعة أهل الشام لمعاوية، حتى زعموا أنه صلى بهم الجمعة يوم الأربعاء. وهذا كذبٌ؛ لأنه كان في حاشية معاوية صحابةٌ فقهاء، وتابعون أتقياء.

---

(1) الخصوصية الاجتماعية، والأدبية واللغوية والسياسية. .إلخ لإقليم من الأقاليم، لا يعارض الوحدة الفكرية بين أقاليم بلاد العرب؛ فبلاد العرب واسعة جداً، ويفصل بين أقاليمها فواصل جغرافية، وقد تعددت فيها المناخات، كما تتعدد اللهجات ـ صفة نطق الكلمات والحروف ـ فتتعدد العادات والأعراف المحلية. . وقد تعددت لهجات العرب قبل الإسلام، فكان لذلك تأثير في قراءات القرآن السبعة أو العشرة، وتعددت الأعراف، وأخذ بها الفقهاء في تقرير الأحكام في فقه المعاملات، وهذا الاختلاف قد يكون في الإقليم الواحد؛ بين حلب ودمشق مثلاً، أو بين حمص وحماة، وهما متجاورتان، وربما كان الاختلاف بين قريتين متجاورتين. . فهذا الاختلاف من سُنن الله في خلقه يحدث نتيجة عوامل متعددة، ولكن القواعد الأساسية لا يختلف عليها الناس.

وعنون ابن عساكر في كتاب «تاريخ دمشق» باب: ما ذُكر من تمسّك أهل الشام بالطاعة، واعتصامهم بلزوم السنّة والجماعة، وذكر شواهد منها: «أن أهل الشام لم يشاركوا في الفتنة والخروج على عثمان بن عفان».

ومنها: أن علياً ﷺ تمنى أن يكون أهل الشام من أنصاره، وقال لأهل العراق: وددتُ أني أبيع عشرة منكم برجل من أهل الشام، فقيل له ـ والقائل أهل العراق ـ: «نحن وأنت كما قال الأعشى:

علقتُها عرضاً وعلقت رجلاً غيري وعُلِّقَ أخرى غَيْرَها الرَّجُلُ

.. علقناك، وعلقْتَ أهل الشام، وعلق أهل الشام معاوية».

.. والحقيقة أن هناك عاملين وحّدا الفكر الشامي: التركيبة الاجتماعية والقبلية في بلاد الشام، وسياسة معاوية واستقراره الطويل في بلاد الشام. لقد مضى على إمارة معاوية للشام يوم قامت الفتنة سنة (35هـ) حوالي عشرين سنة، فكان في العهد الإسلامي أمير واحد وسياسة واحدة. أما بلاد العراق، فقد تعدد عليها الأمراء قبل وصول عليّ إليها.

وعقد ابن عساكر في «تاريخ دمشق» باب: توثيق أهل الشام في الرواية، ووصفهم بصرف الهمة إلى العلم والعناية به.. ونقل ما يدل أو يشهد لتوثيق أهل الشام في رواية الحديث، والموازنة بينهم وبين جيرانهم أهل العراق، ونقل عن الزهري: أن عائشة رضي الله عنها قالت: يا أهل العراق! أهل الشام خير منكم، خرج إليهم نفر من أصحاب رسول الله كثير، فحدثونا بما نعرف، وخرج إليكم نفر قليل من أصحابه، فحدثتمونا بما نعرف، وبما لا نعرفُ (تعني: يضعون الأحاديث).

ونقل عن الزهري ـ وهو معدود في أهل الشام ـ قوله: إذا سمعتَ بالحديث العراقي، فاردُدْ به، ثم اردُدْ به..

وبقيت «الشام» بعد معاوية تمثل اتجاهاً سياسياً في عهد بني مروان، وخصوصاً في زمن فتنة ابن الزبير، فقال عبيد الله بن قيس الرقيات، وكان زبيريَّ الهوى:

كيف نومي على الفراش ولمّا تشملِ الشامَ غارةٌ شعواءُ

تُذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن خدام العقيلةُ العذراءُ

قلتُ: وهذا من أشدّ أنواع العصبية، وكان النبيُّ محمد ﷺ يقول: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» مع كثرة العذاب الذي ناله به قومه.. وقد كرهتُ الشاعر منذ قرأت له ما قال؛ لأنه تمنّى لأجدادي الفناء..

وبقي للشام اسمها المتفرد عبر العصور، يُشار إليها بوصفها وحدة إدارية يُطلق الجزء منها على الكلّ، ويطلق الكلُّ على الجزء.

فعندما احتل الصليبيون القدس قال الشاعر أبو المظفر الأبيوردي:

وكيف تنامُ العينُ ملءَ جفونها على هفوات أيقظتْ كلَّ نائم

وإخوانكم بالشام يُضحي مقيلهم ظهور المذاكي أو بطون القشاعِمِ

.. وبقيت بلاد الشام على وحدتها في عيون الناس، وخُصت بالتصنيف في فضائلها، وسماها الأتراك: «شام شريف»، وبعد الحرب العالمية الأولى تقسمت بلاد الشام إلى أقاليم: (سورية، ولبنان، وفلسطين، والأردن)، ولكن اسم الشام لم يفارقها في الخطاب الأدبي والقومي، ضمن العروبة الجامعة لأقاليم العرب قاطبة: ويمثل هذا الاتجاه قصيدةٌ للشاعر حافظ إبراهيم يقول فيها:

لمصرَ أم لربوعِ الشام تنتسبُ هُنا العلا وهناك المجدُ والحَسَبُ

رُكنان للشرق ما زالت ربوعُهما قَلْبُ الهلال عليها خافِقٌ يجبُ

خِدران للضاد لم تُهتك ستورهما ولا تحوَّلَ عن مغناهما الأدبُ

أمُّ اللغاتِ غداةَ الفخرِ أمُّهما وإن سألْت عن الآباءِ فالعربُ

إذا ألَمّتْ بوادي النيل نازلةٌ باتت لها راسيات الشام تضطربُ

فما الكنانة إلا الشامُ عاج على ربوعها من بنيها سادةٌ نُجُبُ